# السلم

مجلة فصلية محكمة تعنى بقضايا السلم
تصدر عن منتدى أبو ظبي للسلم

منتدى أبوظبي للسلم
ABU DHABI FORUM FOR PEACE
1435 | 2014

ربيع 2022 / العدد السابع عشر

## ملف العدد:
## الأمن البيئي: حماية الطبيعة واستدامة التنمية

فلسفة البيئة: المنطلقات والأسس
أ.د. إبراهيم مشروح

الميثاق العالمي للطبيعة 1982: المدى والحدود
أ.د. العباس الوردي

الاستخلاف وحماية البيئة
د. عبد الرحيم السوني

البيئة بين المقاصد التسخيرية والمقاصد التنموية
أ.د. عبد الرزاق وورقية

هانس يوناس: الأمل في البقاء ومبدأ المسؤولية
(قراءة تأملية في كتاب: مبدأ المسؤولية)
أ.د. إبراهيم مشروح

## شخصية العدد

• محبوب الحقّ
أ.د. عبد الكريم بوفرة

• برنامج الأمم المتحدة للبيئة/ منظمة السلام الأخضر
ذ. عبد الله القطيبي

## حوار العدد

• حوار مع: أ.د. سعيد شبار
حاوره: أ.د. محمد الناصري

عدد خاص

# حوار العدد

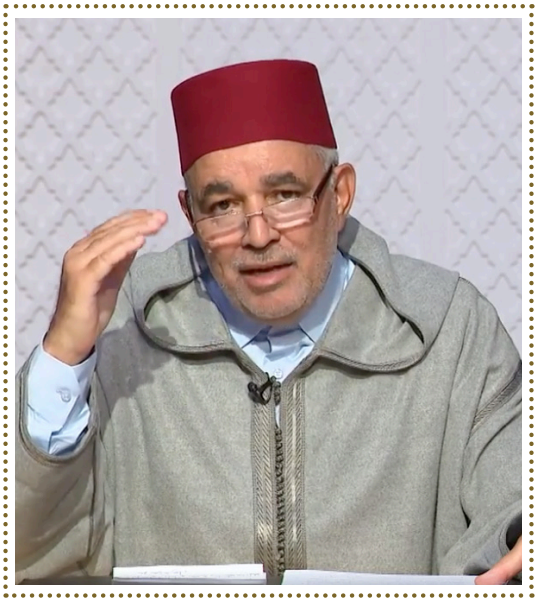

# حوار مع فضيلة الدكتور سعيد شبار

- أستاذ الفكر الإسلامي والحضارة، والعقيدة والأديان المقارنة، بجامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال.
- رئيس وحدة التكوين والبحث للسلك الثالث: الفكر الإسلامي وحـــوار الأديان والحضارات، كلية الآداب بني ملال.
- رئيس مركز دراسات المعرفة والحضارة، كلية الآداب بني ملال.
- رئيس مجموعة البحث في المصطلح، كلية الآداب بني ملال.
- خريج دار الحديث الحسنية، الرباط (1989).

**حاوره فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الناصري**

أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة المولى سليمان- بني ملال

## الأمن البيئي: فواجع الحاضر واستدراك المستقبل

تشهد البيئة بوصفها المجال الحيوي الذي يعيش فيه الإنسان مع غيره من الكائنات الحية في ضرب من التنوع البديع، يحصل منها على مقومات حياته، كما تشمل مجموعة من العناصر الحية الدائمة التفاعل فيما بينها أخذا وعطاء، تأثيرا وتأثُّرا، منذ أمد ليس بالبعيد أزمة خطيرة؛ فمشكلاتها أصبحت تهدد الإنسان والحيوان والنبات برا وبحرا وجوا ... وتمثل الأمطار الحمضية، وتلوث المحيطات، وثقب الأوزون وتسرب الشعاع النووي، وتلوث مصادر المياه، واحتراق الغابات، ونقص الموارد الطبيعية، وارتفاع مستوى مياه البحر، وتزايد عنف الأعاصير، وارتفاع درجة حرارة الأرض، وزحف الصحراء، وزيادة نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الهواء، وتراجع الأصناف الحيوانية البرية والبحرية ... أهم ملامح الأزمة البيئية العالمية، التي تهدد كوكب الأرض بأكمله، ولا تقتصر على منطقة جغرافية أو عمرانية معينة، وكلها تعود إلى النشاط البشري غير الرشيد الذي أنبأت به الآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:41].

أمام هذا الوضع البيئي تزايد الشعور بخطورة الأزمة البيئية وحدتها التي باتت، كما قلنا، تهدد الطبيعة بما فيها البشرية جمعاء، الأمر الذي دفع بالمنتظم الدولي إلى عقد عدة مؤتمرات عالمية قصد تدارس سبل تجاوز هذه الأزمة أو على الأقل الحد من آثارها ... من تلك المؤتمرات؛ مؤتمر ستوكهولم، بلغراد، تيبلسي، موسكو، ريو دي جانيرو، مراكش، وباريس...وقد اعتبرت الأمم المتحدة يوم 5 يونيو من كل سنة يوما عالميا

للاحتفاء بالبيئة، كما ظهر تيارٌ سياسيٌّ يعرف «بالخضر» أدخل في أجندته السياسية المطالبة بالمحافظة على البيئة؛ وفضلا عن ذلك، نشأ، على المستوى المعرفي، علمٌ جديد هو الإيكولوجيا Ecology علم التوازن الطبيعي يهدف – بدوره- إلى دراسة الظواهر البيئية للحد من الأزمة البيئية. وقد شهدت النشاطات البشرية الواسعة في مجال رعاية البيئة ظهور مفهوم الأمن البيئي، وما يقتضيه من سلم مع البيئة.

**ابتداء ما المقصود بمفهوم الأمن البيئي؟ وما هي مجالاته وفروعه؟**

في اعتقادي أن قضية البيئة تبتدئ من الإعلان الإلهي بجعل آدم خليفة لله في الأرض، وأمره بالنزول إليها والحياة فيها، لكن قبل ذلك تم تهييئ وإصلاح هذه الأرض لتكون الحياة فيها ممكنة للإنسان دون غيرها من الكواكب الأخرى. ولهذا أُمر آدم وذريته من بعده طبعا، ألا يفسدوا فيها. لقول الله تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: 58]؛ ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]؛ وعلى خلاف ما ذهب كثير من المفسرين من حصر الإفساد في السعي بالسوء بين الناس، فالأمر يتعلق هنا أيضا بعدم إفساد العناصر الحيوية في هذه الأرض، التي تؤمن حياة الإنسان عليها؛ بمائها، وهوائها، ونباتها، وثمارها، وكل شيء يمنح الحياة. ولهذا أُحيطت هذه العناصر والمكونات البيئية بتشريع قيمي وأخلاقي هام، حماية لها من الإسراف والتلف والتبذير، وترشيدا لحسن التعامل معها واستثمارها بما لا يضر بها. فالكون الذي تنتمي

إليه، هو في هذا المنظور كائن حي في حدّ ذاته ويمنح الحياة لغيره، ولهذا بقدر ما نؤمنه على ذاته بقدر ما يمنحنا الأمن على أنفسنا.

ويترتب عليه أن مفهوم الأمن البيئي هو معنى حقيقي للعناصر الحية في البيئة، وأنها هي التي تمنح الحياة المعيشية للناس وتؤمن بقاءهم. وحينما نتحدث عن الأمن المائي، والأمن الغذائي، والأمن الطاقي، وغيرها، باعتبارها من مجالات وفروع هذا الأمن العام؛ فنحن لا نقصد غير الحفاظ على الماء والموارد الغذائية والطاقية المختلفة، وترشيد استعمال الإنسان لها، وإلا كان هو المتضرر الأول من نضوبها أو إتلافها. وإنها لمعادلة غريبة أن يكون الإنسان المسؤول الأول عن الإفساد في الأرض، والمتضرر الأول من هذا الإفساد؛ أن يكون مُشَرِّع قوانين حماية البيئة، والمنتهك لها في الآن ذاته. ولهذا فالأمر يتجاوز المعالجة البيئية إلى القرارات السياسية، والحاجات الاقتصادية، والمنظورات التربوية والثقافية، باعتبارها مداخل مهمة لرفع التناقض المذكور.

**إن واقع الارتباط بين ما يجري في البيئة الطبيعية من تغير كبير ومتسارع فرض الانتباه إلى أن حماية البيئة أصبحت ضرورة أمنية؛ وفي هذا السياق تبرز أهمية الحديث عن الأمن البيئي، أو بالأحرى يطرح سؤال لماذا الحديث عن الأمن البيئي؟**

لهذا السؤال ارتباط بما تقدم، فالتغيرات المناخية المتسارعة، والتصحر، والجفاف، ونضوب المياه، والتلوث في الهواء، والتعديل الذي شمل كل المأكولات، والإجهاز على الغابات، وانقراض كثير

من الكائنات، والاتجاه إلى فقدان التوازن الايكولوجي...؛ فواحد من هذه الأمور كاف لدق ناقوس الخطر على مستقبل الأرض وعلى حياة الإنسان فيها، فكيف بها مجتمعة؟ ولهذا ينبغي أن يرفع التأهب والانتباه إلى أقصى درجة. أما طرح سؤال لماذا الحديث عن الأمن البيئي، فهو كطرح السؤال هل نحن بحاجة إلى أمن اجتماعي؟ هما في نفس المرتبة. بل إن الأمن الاجتماعي متوقف على كثير من مجالات الأمن البيئي، فنحن بدأنا نسمع طبول حروب تدق حول المياه، سواء تعلق الأمر بالنيل أو غيره؛ وانعدام الأمن الغذائي يتسبب في مجاعات تنذر بهلاك شعوب بأسرها، في بلدان إفريقية أو آسيوية متضررة؛ وهناك إصابات متزايدة في الأمن الصحي للناس، بسبب التعديل الجيني والمواد الكيماوية المتسربة إلى المأكولات والمشروبات. ولهذا فللأمن البيئي تداعيات لا متناهية على جوانب أخرى من الأمن في حياة الأمم والشعوب؛ فإما أن تساهم في استقرارها أو تثير الفتنة والحروب بينها. ولنا أن نحصي فقط الوفيات من ضحايا وباء كورونا في العالم، والذي تقدره منظمة الصحة العالمية بخمسة عشر مليون شخص، ولا يزال النزيف مستمرا. ولنا أن نحصي أيضا الوفيات بالتغيرات المناخية والارتفاع الشديد لدرجة الحرارة، والوفيات بالتسمم الغذائي وتلوث المياه، والمجاعات التي تجتاح شعوبا بسبب الجفاف وندرة المياه، وغير ذلك. مما يعني أن البشرية في حالة حرب حقيقية في هذا المجال تحتاج معها إلى سلم وأمن؛ ولو وفر المتغلبون جهودهم وطاقاتهم، التي تهدر في حروب إضافية، وفي سباق التسلح وتكنلوجيا التجسس، في تحسين

هذه الظروف والتخفيف من حدتها، لوفروا بذلك قسطا من الأمن والطمأنينة للناس ولخدموا شعار الإنسانية بحق.

**الناظر في الأزمة البيئية ومشكلاتها يلحظ الصلة الوطيدة بين مظاهر هذه الأزمة والتطور العلمي والتكنولوجي الذي لم يول اهتماما للبيئة وحاجياتها، وما أفرزه هذا التطور من نظم قيمية مؤسسة على الرفاه والاستهلاك وما استتبع ذلك من انتهاك واغتصاب للطبيعة، دون وازع أخلاقي، فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب.**

**في نظركم كيف أسهم التصور المادي المؤطر للعلوم والمعرفة المعاصرة في تفاقم مشكلات البيئة وتقويض فرص تحقيق الأمن البيئي؟**

للأسف النموذج الحضاري الغربي الذي يقود البشرية اليوم يحكمه هذا المنظور، أي التصور المادي المؤطر للعلوم والمعرفة؛ والذي ابتدأ تأسيسه منذ عصر النهضة والقطيعة مع الدين، وغذته فلسفات وتقدم صناعي وتقني بعد ذلك، قد أدى إلى سحب القيم والمعاني العليا الجميلة من الحياة، وجردها من أسرارها، وجعل الملذات والمتع المادية، كما يقول الناقد المسيري، «فردوسا أرضيا» يحلم بتحصيله كل سجين في هذه المنظومة. إذن سقف الحياة والوجود محدود هنا، والنموذج الحضاري المهيمن، عليه أن يوفر احتياجات الأسواق ويشجع الاستهلاك بأي ثمن، لجني أقصى ما يمكن من الأرباح؛ وهذا ما يقوده إلى الاستغلال البشع لعناصر الطبيعة ومقدراتها، بل وأكثر من

ذلك توهمه التحكم فيها والسيطرة عليها. فهي شبكة أو سلسلة من العلائق يأخذ بعضها بزمام بعض، وتحتاج كما قلنا إلى معالجة مركبة من مداخل متعددة.

ولهذا نجد مدارس، مثل مدرسة فرنكفورت الألمانية، ونقادا غربيين كثيرين يحذرون من الآفات السلبية لهذا التوجه، الذي يقود البشرية إلى مصير مجهول، والذي جرد العقل من إمكاناته النظرية وحوله إلى وسيلة رقمية أداتية، وحصر الإنسان في بعد واحد، وضخم لديه نزعات الفردانية والتحرر والتملك، وأصبحت الثقافة المؤطرة عموما هي ثقافة الاستهلاك، أو الثقافة السائلة كما سماها زيغمت باومان، التي لا يمكن الإمساك فيها بأصل ثابت. للأسف لقد أسهمت العولمة والحداثة وما بعدها، في احتكار العلم والعقل والمعرفة والمصادرة عليها من طرف الشركات والمؤسسات الإنتاجية العملاقة، إغراقا للأسواق بالمنتجات المعدلة والمتحكم فيها، وتحريفا لأذواق الناس إلى درجة الهوس الاستهلاكي، حيث غدا الناس والعالم في هذا المنظور سوقا تنافسية مفتوحة، وليس كائنات آدمية لها وجود وكرامة. والأخطر من ذلك بناء منظومة قيمية مصنعة ومعلبة، موازية لقيم الفطرة في الإنسان، تؤثثها مفردات تم تزييفها مثل تزييف السلع، في معاني: اللذة، والمتعة، والتحرر، والإمساك اليومي بل واللحظي، والتملك، والرغبات الفردية...الخ.

إنه طور التطور المجنون الذي يقوده الجشع والطمع، والإسراف والتبذير، والرغبة في الهيمنة والتوسع، تحت أي اسم كان، والذي لا

يعير اعتبارا للإنسان لا كرامة ولا وجودا، ولا يعير اعتبارا للبيئة لا مجالا ولا محيطا، لا يمكنه أن يقدم للبشرية إلا الشقاء بدل السعادة، والوهم بدل الحقيقة، والخوف بدل الأمن، والرعب بدل الطمأنينة.

**معلوم أن للإسلام إسهامه المعتبر في مجال الأمن البيئي، بالنظر إلى منظومة القيم والأخلاق العملية الموجهة لعلاقة الإنسان بالبيئة في الإسلام. فالإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والبيئة يرسم خطا جديدا ... خطا يقوم على الوئام والانسجام، والتكامل والوفاق، والتجانس والالتحام بين الإنسان والبيئة... فما هي أهم المبادئ التي تتأسس عليها الرؤية التكاملية للعلاقة بين الإنسان والبيئة في الإسلام؟ وبم تتميز هذه الرؤية عن نظيراتها ذات المرجعيات الفلسفية المادية؟**

في المنظور الإسلامي الكون بعناصره المختلفة كائن حي عابد، وحديث القرآن عن آيات الآفاق هو أوسع بكثير من حديثه عن باقي الآيات؛ فالكون يسبح ويحمد ويسجد بما يليق به ولا نعلم نحن ذلك. ويكفي أن نقرأ هذه الآية التي تصور لنا جمال وجلال هذا الموكب الكوني الساجد، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: 18]. وإن مما يوسع إدراك ووعي الإنسان بمعنى التكليف، استحضارُه للكائنات حوله باعتبارها مكلفة كذلك؛ وإن اختلفت طبيعة التكليف

بينه وبينها. فإن كان تكليف الإنسان سعيا وكدحا، وجدا واجتهادا؛ لقوله تعالى:﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 39-40] وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[الانشقاق، آية 6]؛ فإن تكليفها تكليف طوعي، وهدايتها هداية طوعية، لقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

فالإنسان إذن مُشْتَرِكٌ في العبادة مع الكون والكائنات، تسبيحا وسجودا وخشية؛ وذلك ما تقرره آيات أخرى كثيرات نذكر منها قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]. ثم إن الكون له وظيفة تسخيرية تمكن الإنسان المستخلف من القيام بالتكاليف المنوطة به، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]. فالصلاة مرتبطة بالزمن الكوني بتعاقب الليل والنهار، والحياة مرتبطة به كذلك بتعاقب فصول السنة، ومعاش الإنسان مستمد من الأرض ثمارا ومن السماء ماء؛ فالإنسان إذن محوط بنعم الله عليه، لا يكاد يملك لنفسه شيئا؛ إلا تكريمه وتفضيله بالأمانة التي حملها، وبالعقل الذي به يسعى ويكدح، فإما أن يكون شاكرا للنعمة أو جاحدا لها، ومن أوجه الشكر الصلاح

في النفس والإحسان إلى المخلوقات، ومن أوجه الجحود الفساد في النفس والإساءة إلى المخلوقات.

ولقد اعتبر القرآن الكريم المخلوقات الأخرى أمما أمثالنا على اختلاف أجناسها وأنواعها، مثل أمة الناس: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 38]. وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)، [رواه مسلم]. ولكثرة وصيته عليه السلام بالعناية والارتفاق بالمخلوقات الأخرى، سأله الصحابة مرة فقالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا، قال: (في كل كبد رطبة أجر)، [متفق عليه].

ثم إن الإسلام قد أحاط الإنسان بمنظومة قيم وأخلاق ترشد وتسدد تعامله فيما بينه من جهة، وفيما بينه وبين غيره من الكائنات من جهة أخرى؛ تشكل محيطه ومجال استخلافه وتوفر له سبل الحياة.

فنجد النهي عن الإسراف والتبذير، أكبر آفة مضرة بالبيئة في عالمنا اليوم، أي الإفراط في استعمال واستغلال موارد الطبيعة إلى درجة الإخلال بالتوازن الطبيعي؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

[الإسراء:27]. وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالصحابي سعد وهو يتوضأ. فقال: (مَا هَذَا السَّرَفُ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ، قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ) [سنن ابن ماجة]. هذا في الماء، ومثله في باقي المجالات.

إن كثيرا من النصوص الدينية تحدثنا عن هذه العلاقة من المحبة والتفاعل الإيجابي التسخيري بين الإنسان والكائنات من حوله؛ يحدثنا القرآن عن الجبال والطير المسبحة مع داوود عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ 10]؛ وعن حديث سليمان مع الهدهد ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾(...)، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النحل: 17-22]؛ وعن تفاعله مع حديث النملة ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: 18].

وتذكر لنا كتب الحديث والسيرة آثارا رائعة في تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم مع الجمادات، بل ومخاطبته لها مخاطبة الأحياء. فعن جابر بن عبد الله: (كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ) [صحيح

البخاري]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في جبل أُحد وقد كانت هزيمة المسلمين عليه بعد نصرهم ببدر: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) [صحيح البخاري]. وتذكر رواية أخرى عن أنس بن مالك أنه قال: (صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ) [صحيح البخاري].

ومثل هذا نجده في نصوص دينية أخرى، ففي العهد القديم في سفر المزامير، نقرأ مثلا:

(1. هَلِّلُويَا. سَبِّحُوا الرَّبَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ. سَبِّحُوهُ فِي الأَعَالِي،

2. سَبِّحُوهُ يَا جَمِيعَ مَلاَئِكَتِهِ. سَبِّحُوهُ يَا كُلَّ جُنُودِهِ،

3. سَبِّحِيهِ يَا أَيَّتُهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. سَبِّحِيهِ يَا جَمِيعَ كَوَاكِبِ النُّورِ،

4. سَبِّحِيهِ يَا سَمَاءَ السَّمَاوَاتِ، وَيَا أَيَّتُهَا الْمِيَاهُ الَّتِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ،

5. لِتُسَبِّحِ اسْمَ الرَّبِّ لأَنَّهُ أَمَرَ فَخُلِقَتْ، (...)،

8. النَّارُ وَالْبَرَدُ، الثَّلْجُ وَالضَّبَابُ، الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الصَّانِعَةُ كَلِمَتَهُ،

9. الْجِبَالُ وَكُلُّ الآكَامِ، الشَّجَرُ الْمُثْمِرُ وَكُلُّ الأَرْزِ،

10. الْوُحُوشُ وَكُلُّ الْبَهَائِمِ، الدَّبَّابَاتُ وَالطُّيُورُ ذَوَاتُ الأَجْنِحَةِ،

13. لِيُسَبِّحُوا اسْمَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ قَدْ تَعَالَى اسْمُهُ وَحْدَهُ. مَجْدُهُ فَوْقَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.) [مزمور 148].

وفيه أيضا أن من دواعي تعظيم الرب أنه:

(10. اَلْمُفَجِّرُ عُيُونًا فِي الأَوْدِيَةِ، بَيْنَ الْجِبَالِ تَجْرِي،

11.. تَسْقِي كُلَّ حَيَوَانِ الْبَرِّ، تَكْسِرُ الْفِرَاءُ ظَمْأَهَ،

12. فَوْقَهَا طُيُورُ السَّمَاءِ تَسْكُنُ، مِنْ بَيْنِ الأَغْصَانِ تُسَمِّعُ صَوْتًا،

13. السَّاقِي الْجِبَالَ مِنْ عَلاَلِيهِ، مِنْ ثَمَرِ أَعْمَالِكَ تَشْبَعُ الأَرْضُ،

14. الْمُنْبِتُ عُشْبًا لِلْبَهَائِمِ، وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ، لإِخْرَاجِ خُبْزٍ مِنَ الأَرْضِ،

15. وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ، لإِلْمَاعِ وَجْهِهِ أَكْثَرَ مِنَ الزَّيْتِ، وَخُبْزٍ يُسْنِدُ قَلْبَ الإِنْسَانِ.) [مزمور 104]. ونجد في المسيحية ارتباطا بين حركة المسيح عليه السلام وبين عناصر الطبيعة ومخلوقاتها، فمن موعظة الجبل الشهيرة، إلى الحديث عن ثمار الأرض ومحصولها، وعن الأزهار والأشجار، وعن الحملان والطيور، وعن أخلاق المحبة والوفاء التي ينبغي أن تكون بين الناس وبين غيرهم.

إن هذا المنظور الاستخلافي للكون، والتسخيري للكائنات، ومشاركتها في العبودية لله؛ يوجب على الإنسان، تدينا، الارتفاق بها والإحسان الكبير في التعامل معها، والتدبير الأمثل في استخدامها، ونسج علاقة صداقة وبر وتعاون معها. فكما حرر الإسلام الإنسان بقيمة التوحيد من العبودية للمخلوقات، التي كان يعتقد بقهرها له؛ فإنه يحرره كذلك بباقي قيم: الخير والنفع والصلاح والجمال والإحسان والرفق والرحمة والقصد والرشد...، من وهم قهر الطبيعة والتحكم فيها وإخضاعها لمطامحه ورغباته، في التسلط والتسيد، وفي التفوق الإنتاجي والصناعي. وها نحن نرى كيف أن مخالفة سنن ونظام الكون يتضرر منها الإنسان أولا، ويؤدي ثمنها باهظا فيما يحل به من أوبئة، وتغير مناخي، وندرة الماء والجفاف... وغير ذلك، مما يمهد

لنزاعات تنتهي بحروب. فالتعامل مع الكون، باعتباره شريكا، يستوجب الدخول معه في علاقة سلمية لا عدائية؛ بما يعزز نسج علاقة صداقة وتفاعل إيجابي من الأخذ والعطاء الراشد.

**ارتباطا بهذا السؤال، سن الإسلام قرآنا وسنة مجموعة من التشريعات للمحافظة على البيئة من جانبي الوجود والعدم والتي تمثل بحق استراتيجية عملية ناجعة لتجاوز الأزمة البيئية العالمية وتحقيق الأمن البيئي. فما هي أهم هذه التشريعات؟**

إن فلسفة التشريع الإسلامي قائمة في كل شيء على التوسط والاعتدال وعلى ضبط التوازن بين العناصر والمكونات المختلفة؛ نجد هذا حتى في تشريع الأحكام التعبدية فكلها مقدورة للإنسان وفي حال العجز عنها تأتي الرخص، وفي القاعدة المقررة هنا أن المشقة تجلب التيسير. نفس الأمر نجده في الحياة العامة، من حيث طلب التيسير ورفع الحرج وعدم الإفراط في استعمال أي شيء وإنما القصد فيه. هذا المنظور والمنهج العام يحكم سلوك الإنسان كذلك تجاه الكائنات والمخلوقات الأخرى وتجاه عناصر البيئة التي يحتاجها الإنسان في معاشه.

ولقد قرر جمهور العلماء أن من مقاصد الشريعة جلب المصالح والمنافع للناس، ودرء المفاسد والمضار عنهم، وتحصيل سعادتهم في الدارين معا؛ ولهذا أنيط التشريع وأحكامه بهذا الاعتبار، فما كان فيه مصلحة ومنفعة أُمر به وجوبا أو ندبا، وما كان فيه مضرة أو مفسدة نُهي عنه تحريما أو كراهة، كل ذلك بحسب درجة النفع والضرر

العاجل والآجل. ومعلوم أن ما يقوم به الإنسان اليوم من استغلال مفرط للمقدرات، وإسراف وتبذير في استعمالها، وإخلال بناموس الكون ومصادمة نظامه، والتصنيع الجنوني للرفع من وتيرة الإنتاج ولو بالتعديل الجيني والكيمائي للمأكولات والمشروبات، من أجل الحصول على أعلى نسب ممكنة من الأرباح ...؛ فكل هذا وغيره لا يتبعه إلا مفاسد ومضار دنيوية عاجلة. فتلويث الهواء وتلويث المياه وتلويث الأطعمة، مضر بالنفس التي أمر الشارع بحفظها، ورتبها العلماء الثانية بعد حفظ الدين، وأحيانا تكون الأولى لأن القائم بالدين أو المتدين هو الإنسان. ولهذا كان النهي الشديد: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]. وأن: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]. والمرتكب لهذه الجرائم والآثام في حق البشرية إن أفلت من العقاب الدنيوي سيطاله العقاب الأخروي، علما أن العقاب الدنيوي حاصل ومترتب على الفساد نفسه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]. فالشريعة إذن حاسمة في النهي عن الفساد في الأرض: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205]. وهي بالمقابل تشيد بالحياة الطيبة، وبالتمتع بزينة هذه الحياة التي تدور رحاها على هذا الكوكب بكل ما يحمله من معاني الجمال والجلال، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32].

**إذا كان الأمن البيئي لا يتحقق إلا بالإنسان نفسه، فالتربية البيئية تعتبر من أنجع المداخل المثلى لتحقيق الأمن البيئي، فكيف تسهم التربية البيئية في تحقيق الأمن البيئي الفعال وليس النظري فحسب؟**

نعم، هذه قضية في غاية الأهمية، سواء في التعامل مع البيئة أو قضية من قضايا الحياة، فلا مدخل سليم إليها إلا التربية؛ والتربية هنا عمل تركيبي مندمج تساهم في أطراف متعددة، حيث ينبغي أن يكون بينها من الانسجام ووحدة المنظور ما يجعل المتلقي يعزز مكتسباته ويرسخها في ذهنه من غير تناقض. فالأسرة والمدرسة والمجتمع والسياسات العمومية المتبعة، كلها عناصر شريكة في هذا الباب، والمعلومة التي نأخذها من المدرسة مثلا ولا نجد لها صدى في البيت أو في الشارع تتبخر بسرعة ولا يكون لها تأثير أو توجيه. والبلدان الناجحة اليوم، هي التي استطاعت أن تتحقق بهذا التوازن التربوي في كافة القطاعات، وخصوصا الدول الاسكندنافية؛ فهي وإن لم تكن ذات صناعات قوية أو اقتصادات متفوقة، تعيش الأمن والنظام الداخلي والسلام الداخلي.

التربية البيئية إذن جزء من هذا المنظور، أن تتربى الأجيال على احترام البيئة، بالإحسان في التعامل مع مكوناتها، وبترشيد استعمال كل شيء فيها؛ فهذا أمر مهم، ومهم كذلك إلى جانبه أن تكون هناك

سياسات داعمة لهذا التوجه التربوي تعززه ولا تنقضه، وتمكن له على أرض الواقع ولا تقدم نماذج سيئة عنه. فنحن نرى اليوم أن الجوائح والأمراض، والاحتباس الحراري، والتغيرات المناخية، وندرة المياه ...، أمور تعاني منها البشرية كلها، وليس شعوبا دون أخرى؛ وهذا يستدعي ليس فقط تعزيز النظم التربوية البيئية في العالم، بل كذلك تفعيل الاتفاقات والقمم والالتزامات الدولية بهذا الصدد، سواء داخل الأمم المتحدة أو خارجها. ففي ظل العولمة يكاد يختفي المحلي والخاص لفائدة الكوني والعام.

**لما كانت الأزمة البيئية أزمة عالمية وتحد مشترك تداعت له جميع الأمم والشعوب، فإنه من الأسلم للبشرية وفي إطار السعي لإيجاد حلول كونية للأزمة البيئية، وتفعيلا للأمن البيئي، تعزيز المشترك البيئي والمصالح العامة تغليبا لها عن الجوانب الاقتصادية والمصالح الخاصة للدول. فما طبيعة الإسهام الديني في سبيل تعزيز المشترك البيئي؟**

كما تقدمت الإشارة، فإن جل التحديات التي تعرفها البشرية اليوم هي ذات طبيعة عالمية كونية، تكاد تنتفي فيها الخصوصيات إلا في النادر؛ يتأكد هذا الأمر حينما يتعلق بمشترك بيئي يهم حياة الناس جميعا؛ فالمصانع الكبرى في العالم حينما تضخ نفاياتها الغازية، والإجهاز على غابات بكاملها لأغراض ربحية تجارية، والنفايات التي يقذف بها في البحار أو الصحاري، وخصوصا النفايات الإلكترونية التي تتخذ من بعض الصحاري مقابر لها، وكذا التجارب النووية ...،

فهذه على سبيل المثال، لا ينحصر ضررها على الجهة الفاعلة لها؛ ومن هنا ضرورة تدخل القوانين الدولية الرادعة بهذا الصدد. فحل الأزمة البيئية ليس شأنا محليا، وإن كان الانخراط المحلي ضروريا وجزء من الحل لكنه ليس كل الحل؛ فيمكن أن يتسرب إليك الضرر بسرعة من أقرب جيرانك، بتلوث مائي أو هوائي أو نباتي؛ وكما يتحدث اليوم عن حروب جرثومية تصيب الإنسان، فهناك مثلها في تلويث كثير من الثمار وإصابتها بالتلف تنافسا على الأسواق بين الدول.

إن المشترك البيئي في تقديري هو أجدر المشتركات الإنسانية بهذا الوصف، أي أنه يتحقق به على أعلى المستويات؛ ومهما تحدثنا عن مشترك ديني أو ثقافي أو اجتماعي، فنسبة الخصوصية تبقى فيه كبيرة؛ لكن المشترك البيئي تكاد تنعدم الخصوصية فيه. ولهذا يمكن للدول والشعوب أن تحقق أمنا دينيا أو ثقافيا أو اجتماعيا بنسبة محلية مقدرة، لكنها لا تستطيع ذلك بالنسبة للأمن البيئي إلا بجهود دولية مشتركة. وهنا كما قلت سابقا دور تفعيل الاتفاقات والقرارات الدولية الصادرة بهذا الصدد، وعدم تركها حبرا على ورق.

أما الإسهام الديني في تعزيز المشترك البيئي، فدور الدين في أي مجال من مجالات الحياة الإنسانية هو الترشيد والتصويب والتسديد، بما يحصل النفع ويدفع الضرر. ونحن نعجب كيف يتم، في هذا العالم المصنع، تهميش القيم الدينية في الأديان كلها، واستبعاد دورها المعزز والمؤكد للأمن البيئي؛ بل أكثر من ذلك، فالأديان لا تعالج مظاهر الإخلال بالبيئة بقرارات واتفاقات، بل تعالجها من عمق القناعة

الإنسانية، حيث تربط مسؤولية الإنسان فيها بالإيمان. أي تجعل هذا العمل قناعة إيمانية يثاب عنها ويعاقب، وليس فقط ضرورة معيشية وحياتية. فليست قطيعة الحداثة وما بعدها مع القيم الدينية، مبررا لاستباحة كثير من السلوكيات الممنوعة المضرة بالنفس وبالناس وبالوجود؛ فهذه للأسف إحدى مساوئ هذا التوجه الفلسفي والسياسي، حينما يوهم أصحابه بالحريات المطلقة، ويزيح من أمامهم القيم الدينية والعقلية والاجتماعية المشتركة.

**رغم إسهام جهات كثيرة، خاصة المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية في حماية البيئة، ورغم المؤتمرات الدولية فإن الوعي البيئي المحلي والدولي لم يتبلور بما فيه الكفاية لدى الناس ولدى صناع القرار والسياسيين، مما يكرس استمرارية التدهور البيئي العالمي، ويزيد من خطورة التهديدات البيئية. فما هي في نظركم أستاذي أهم أسباب فشل المجتمع الدولي في تحقيق الأمن البيئي؟**

هناك جهود حثيثة من المنظمات الدولية والهيئات والمؤسسات المختصة بالدفاع عن البيئة، واليوم أو الأيام العالمية المخصصة لها كذلك؛ فهذا أمر لا يخفى منذ عقود، لكن ثمار ذلك غير واضحة ونتائجه ضعيفة جدا. ومرد هذا إلى غلبة النزعة الاستهلاكية، بالمعنى العام للاستهلاك في سائر المنتجات، التي تقودها الشركات العملاقة العابرة للحدود، والتي أضحت متحكمة في كل شيء؛ في الفكر والمعرفة، وفي الإعلام والسياسة، وفي الاقتصاد والقيم وغيرها. فلم تعد المعرفة التي ينتجها رجال الفكر، والتي دقت ولا تزال تدق ناقوس الخطر،

بخصوص المصير المجهول الذي تقود الحضارة الغربية البشرية إليها؛ لم تعد هي الموجه والمؤثر، بل تم تطويعها لفائدة منطق السوق، فأصبحت تمجد قيمه الجديدة، وإنسانه الأخير باعتباره النموذج الأمثل، إلى درجة الإعلان عن نهاية التاريخ. فحينما يرد الاعتبار للعلم كعلم، وللمعرفة كمعرفة، ولقيم الفطرة المشتركة في الإنسان، وللإنسان كإنسان وليس جزء من معادلة إنتاجية هدفها الربح، حين يعلو هذا الصوت على غيره يمكن لبعض الثمار أن تظهر، لكن إلى ذلك الحين فهناك، من غير شك، خسائر وأضرار جسيمة ستدفع البشرية ثمنها جراء هذا الاختيار والتوجه.

فالتطور المجنون الذي يقوده الجشع والطمع، والإسراف والتبذير، والمتع الزائفة المعلبة، والرغبة في الهيمنة والتوسع، تحت أي اسم كان؛ والذي لا يعير اعتبارا للإنسان لا كرامة ولا وجودا، ولا يعير اعتبارا للبيئة لا مجالا ولا محيطا؛ لا يمكنه أن يقدم للبشرية السعادة أو الأمن والطمأنينة، بل يدخلها في صراع وجودي بين قيم الفطرة الآدمية، وقيم الاستهلاك والإشباع المصنعة. وفي انتظار تغلب الضمير الإنساني اليقظ، الذي لا ينبغي أن يكف عن التحذير والتنبيه، نسأل الله أن يلطف بالناس وأن يعمهم برحمته وفضله.